« مكتبة فريدة »

« وصاحبها ايضاً فريد »

من اسابيع معدودة ارسل الاستاذ اسماعيل تيمور بك الامين بالسراي الملكية وشقيقة الاستاذ محمود تيمور بك الاديب والقصصي المعروف كتاباً الى وزير المعارف يذكران فيه لمعاليه ان والدهما فقيد الادب والعلم والحجا المغفور له احمد تيمور باشا لم يشأ ان يستأثر اهله وذووه من ورثته بمكتبته التي خلفها ضمن تركته ايما شاء — شأن الاديب المخلص لادبه — ان ينتفع بها الادباء من اهل وطنه فأوصى بأن تخصص لها مكان في دار الكتب الملكية المصرية تنقل من مكانها اليه حتى يتذوقوا ما تحويه بطون كتبها من علم وأدب . وزاد الاستاذان فطلبا الى معالي الوزير ان يعاونهما في تنفيذ وصية ابيهما البار بمصر وبنيها فيأمر بنقل المكتبة النفيسة الى دار الكتب، فشكرهما الوزير عملهما الحميد وود لو يكون كل اديب مخلص للادب وأنصاره كأبيهما المبرور . ونحن نكتب هذه العجالة وتنفيذ الوصية في سبيلها المنشود . ولقد اذكرنا كتاب الشابين الاديبين ما كان لباشا الوالد من ادب جم وعلم غزير ، وعاد بنا الى ما نعرفه له من حرص على اللغة العربية ان تموت وتفشو العامية فتحتل المكان ، ولا خير في امة تضيع لغة الآباء والاجداد فتستبدل بها لغة كسيحة لا تقوى هي نفسها على السير قما بالك بأن تنهض بسواها

وهنا قد يدهشك ويثير عجبك ان (ينحرف) الابن عن (جادة) ابيه فبينما يتعشق الاول لغة الضاد ويروج لها ويعمل على انتشارها ، اذ الابن يعزف عنها الى اللغة العامة والبسطاء ويجهد نفسه في التدليل على استعمالها في الكتابة تمشياً مع روح العصر الجديد

اما ذلك الابن فهو المرحوم محمد تيمور الكاتب المسرحي المشهور والروائي الذي ظهرت له روايات عدة على مسرحنا المصري الناشيء منها « عبد الستار افندي » و « اطاوية » و« العصفور في القفص » وغيرها ، فقد كان شديد الدأب على الدعوة للعامية مدللاً بأنها لغة الشعب فهي اقرب الى عقله وقلبه من العربية الفصحى ، فكتب رواياته كلها — وقد نجحت جميعاً — بالعامية ، ولكنه نسي — كما حدث زميل ظريف — ان يكتب كتابه « المسرح المصري » بها فألفه بالعربية الفصحى

اما حجة فقيد العربية تيمور باشا في الترويج للفصحى ، فهي انها لغة القرآن الشريف ، ولغة اجدادنا العرب ، فيجب صونها من العبث ، اذ في صيانتها صيانة للكرامة العربية القومية وللارث العربي في الادب والعلم والاجتماع ، فاذا كان الشعب قد عوّد لسنه اللغة العامية

المغفور لها

محمد تيمور — امام صفحة ٣٤٣

مقتطف مارس ١٩٣٢ — احمد تيمور باشا

فيجب على قادته واولي امره — وهم الادباء — ان لا ينزلوا الى مستواه بل على الضد حتم عليهم ان يرفعوه الى مستواهم فيزيدوا في تثقيفه وتهذيبه ويحيوا فيه العزة العربية

ولسنا في مقام المفاضلة بين الرأيين ، ولكنا نعرض هذا الحديث لنبين لك كيف كان تيمور الكبير يربي بنيه في مدى واسع من الحرية يختارون ما يشاؤون من الاساليب وما يستسيغونهُ من الوان الادب ، فمن عاف شيئاً لم يحمله على قبوله ، بل اقنعهُ بالحسنى بالقبول مرة وثانية وثالثة ، فان اهتدى فنعمت والاَّ تركهُ وشأنهُ والايام كفيلة باقناعه

وأعتقد عن يقين ان محمداً تأثر في اخريات ايامه محجة ابيه فلم يجنح الى العامية في تأليف « المسرح المصري » بل عطف منها الى العربية ، وسواء اكان هذا « نسياناً » منهُ كما قال الزميل او يقيناً وحقاً الاَّ انهُ — ولا شك — اثر مما كان يدور بينه وبين والده العظيم

أما الاستاذ محمود تيمور بك فهو وسط بين اخيه وأبيه المرحومين ، فهو يكتب قصصه بأسلوب هو مزيج بين هذي وتلك ، فلم يغرق في العربية الفصحى الى عمق الحذلقة فيها واختيار مصمتات الفاظها ، ولم يطف على وجه العامية مستحسناً منها المبتذل المعوج . فان شئت القرب من الاب العربي ، فانشد في ولده الاستاذ اسماعيل تيمور بك ، ولئن كان لم ينزل الى ميدان الكتابة الاَّ انهُ شديد الكلف بالكتب العربية القديمة ومصنفات آداب اللغة يستوعب ما فيها فلا يدع كلمة تشكل عليهِ الاَّ بحث عن اصلها وفصلها حتى وقف على كل ما يشبع رغبته في البحث والدرس

وهذه امور يرجع فيها الى البيئة التي ربي فيها الواحد منهم وعلى من تعلم ودرس ، فتيمور الكبير ، صاحب المكتبة القريبة ، تعلم اول ما تعلم على لغته مائشة التيمورية في الوقت الذي كان يطلب العلم في مدرسة « مارسيل » الفرنسوية وكان لا يدخلها الاَّ اولاد الاعيان وفيها تخرج دولة عدلي يكن باشا . ومائشة هي من يعرفها كل متأدب في الشرق ، الادبية ، قويمة اللسان ، فصيحة البيان ، الحريصة على لغة الآباء والاجداد

ثم درس على المرحومين المشايخ حسن الطويل ورضوان المخللاتي وابي خطوة علوم الاسلام وادب اللغة وفقهها وكذلك شب احمد تيمور ، على حب اللغة العربية والانتصار لها والسعي في لم شعثها ، وكان مجلسهُ لا يضم الاَّ خيرة رجال الادب في مصر ايام شبابه كالمرحومين الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده واسماعيل صبري باشا ومحمود سامي البارودي باشا

ومما يجب الالماع اليهِ ان تيموراً درس على الاستاذ الشنقيطي المعلقات السبع فوقف على شروحها وغريب الفاظها وعقد اعرابها حتى اضحى الوحيد في القطر في هاته المعلقات ، اليهِ يرجع في درسها وتحصيلها . وكان اصفى الاصدقاء لديه الاستاذ الامام والشيخ حسن منصور رحمهما الله

اما ولداه محمد ومحمود فقد تعلما تعلماً اوربيًّا فاختار كل منهما ما حلا له ولكن اسماعيل مع انهُ تعلم مثلهما الاَّ انهُ ورث حب العربية عن ابيه فلم يعد يحب الاَّ سماعها والاَّ التحدث بها وقراءة كتبها النادرة

اعود الى حديث المكتبة فاقول انني اخترت لمقالي هذا العنوان السابق ، لا لانهُ من عفو خاطري ، ولكن لانهُ كان شهادة طيبة سامية من جلالة مليك البلاد قرأتها في مجلة «الزهراء» الغراء اتقلها بحرفها هي : —

« كان فضيلة السيد محمد البلاوي مرة بين يدي جلالة الملك يذكر له شيئاً عن خزائن الكتب المصرية ، فقال يصف الخزانة التيمورية ، وكان ذلك في حياة صاحبها رحمه الله : —

— ان مكتبة تيمور باشا فريدة في مصر لا مثيل لها بعد دار الكتب المصرية

— فاجابه جلالته : —

— وصاحبها ايضاً فريد » . اهـ

ما اجلها شهادة من ملك مصر المعظم . ووالله انهُ لخارق للعادة أن يؤلف رجل مكتبة تحوي نحو ثلاثة عشر الف مجلد تقيس بؤمن ملك فريد في الملوك على انها « فريدة » ويزيد على صاحبها بانهُ « فريد »

فهل كان جمع الكتب دأبه وعمله في الحياة ؟ ؟

نعم دون عجب . فانهُ بعد ما رزئ باثنتال قرينته الى الرفيق الاعلى ازداد ميله الى الادب والعلم فبدأ يجمع الكتب ، لا ليتفرج عليها ويزهو بين الخلان والصحاب بان عنده مكتبة نادرة ولكن ليتزود بما فيها ، فلا يضع كتاباً جديداً يقع عليهِ في مكانه الذي يختاره له بين زملائه الاّ بعد ما يأتي على آخر حرف فيه ، ويعلق على هوامش صحائفه بما يعن لهُ ، وكان أمتع وقت عنده للاستفادة من الكتاب ، وقت الليل والناس نيام ، فاتخذ الكتاب قريناً وعزاء له في وحدته بعد زوجه فكان خير قرين . واما أحب الالوان اليه فكان اللغة والتاريخ والحديث الشريف . كان حجة لا يبارى وامامًا لا يجارى في الغزارة والاطلاع والعرفان فيها جميعاً

واكثر كتب هذه المكتبة الفريدة مخطوط قديم لا يقدر بثمن لنفاسته وندرته ، يشتري الواحد منها بما يطلب صاحبه من دون مساومة ولا جدل ، ذلك لانه كان يقول : لا مساومة في الادب كما لا مساومة في الدين . وحبه للقديم دفع بهِ الى ايثاره كتب طبع بولاق أو المطابع الاوربية القديمة ، وليس معنى هذا انه كان يكره الكتب الحديثة ولكنه كان لا يسمح لواحد منها ان ينال شرف الانتساب الى مكتبته الاّ اذا كان نفيساً مفيداً . وليست المكتبة مقتصرة على كتب اللغة والتاريخ والحديث لشغفه بها ، بل هي حافلة بكتب النحو والصرف وتاريخ الاسلام والعرب ، ولم يفتهِ من الكتب الفرنجية الا ما كان يبحث منها في الاسلام أو العرب وهو وان كان غير ميال الى القصص — على ضدّ ابنيه — الاّ انه كان يحوز منها القديم المشهور كقصة « عنتر » وزميلتها « الف ليلة وليلة » وغيرهما

ولعل من أكبر البواعث على اجلالهِ انه كان لا يعهد في ترتيب مكتبته إلاّ الى نفسه ،

محمود تيمور بك

اسماعيل تيمور بك

امام صفحة ٣٤٥

فكان يسهر طويلاً في تبويبها ووضع الفهارس لمحتوياتها وتعليق اللوحات الصغيرة على كل فن من الفنون

ولما فخمت المكتبة وعز شأنها ابتنى لها داراً خاصة بالزمالك حيث الهدوء والسكون واحاطها بروضة مزهرة ، ووقف عليها اطياناً لرعايتها وصيانتها ، وجعلها من ثلاث غرف : الاولى للمطالعة ووضع بها مجموعة اللغة : آدابها وفقهها ونحوها وصرفها وزينها بمجلود نفيسة كانت تستعمل قديماً للكتابة وجعل جدرانها بمجموعة من الصور لمشهوري رجال العلم في مقدمتهم حكام مصر وابطال تاريخها الحديث والقديم. والثانية لفقه فيها كتب تاريخ العرب والاسلام والحضارة الاسلامية وجغرافية بلدان العرب. والثالثة لمختلف العلوم والفنون

ولم يرد الا ان يصون الكتب المخطوطة المذهبة والمصورة بآلة التصوير، في خزانة جميلة صنعت خصيصاً لها

وطبيعي ان لا بد لاديب علامة هذا شأنه ان يكون قد ترك وراءه تراثاً ادبياً ينمُّ على مبلغ ادبه وعلمه ، مؤلفات تنبئ بان تيموراً كان من الرجال الافذاذ الذين يعملون في صمت من دون جلبة ولا ضوضاء

واظهر مؤلفاته « معجم اللغة العامية» وضع فيه كل لفظ عامي يعرفه وسمعه وقرأه ورده الى اصله وبين ما اشتق ثم اتى له بمرادف عربي ليدحض قول الذين يقولون ان هناك الفاظاً عامية لا توجد لها الفاظ تؤدي معناها بالعربية

ثم « مفتاح الخزانة » وهو بمثابة فهرس لخزانة الادب التي صنفها البغدادي ، ليسهل على قارئها مراجعتها

ثم « ابو العلاء وعقيدته » وفيه يعتقد ان ابا العلاء المعري لم يكن من الملاحدة بل كان على الضد من ذلك مؤمناً طائعاً سليم العقيدة الدينية

ثم « الآثار النبوية » وقد تناول فيه المؤلف النقيد الآثار المنسوبة الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم فحققها وابان مبلغ الحق فيها من الكذب

ثم «تصحيح لسان العرب» وفي عنوانه ما يغني عن الشرح وكذلك « تصحيح القاموس المحيط»

هذا بعض من كل ، ويغلبنا الاسف ان اكثر مؤلفاته النفيسة لم تطبع وما زالت محفوظة بالمكتبة الفريدة بخط يده

ومما يسر ويبهج ان الاستاذين اسماعيل بك ومحمود بك افنديا اليّ بانهما سوف ينشران ترجمة وافية لابيهما متضمنة اعماله ومؤلفاته وكل ما قيل فيه امدّ الله في حياتيهما

محمد علي رفاعي